آفاق
مجموعة قصصية
دانية قصاص

آفاق

دانية ياسر قصاص

ـهل تعلمين كم انتظرتك؟ كدت أصدق أنكِ كنتِ شبحًا ولست فتاة!

رفعت عينيها إليه:

ـدعني أوضح لك الأمر في البداية، أنت لا تعرف ماذا حدث!

استدار هامسًا:

ـعليّ أن أشرح لهم كيف أعرفك أولًا.

ركضت لأمامه مردفة:

ـدعني أعطهم لمحة سريعة عن الأمر بنفسي.

حدّق بها لبرهة من الزمن متذكرًا كيف كان يرجوها لتحادثه، والآن ها هي بنفسها تفعل الشيء نفسه، ليس غبيًا ليشمت الآن، أو يشعر بالانتصار، هو يفتقد الفتاة المشاكسة التي يراها الآن هادئة ومستسلمة، لكن شيئًا واحدًا لم يتغير فيها، وهو أنها جميلة، جميلة جدًا في عينيه في كل أحوالها.

أومأ لها برأسه إيجابًا، ومشى، لم تعرف لأين يذهب، أرادت أن تستوقفه لكنها تراجعت، ابتعلت ريقها واستدارت للحضور الذين لا يفهمون شيئًا ممّا يحدث، وروت لهم باختصار عن معرفتها بـ، دون ذكر اسمه على أي حال هي لا تعرف اسمه، كانت الفتيات يتململن

من هذه الجلسة ومن التعرف على خادمة جديدة وصلت لتوها، لماذا يوليها نوار كل هذا الاهتمام؟ كان ذلك يغيظهن، أما الشبان فكان واضحٌ أن لا أحد منهم يهتم للأمر، الأول يقرأ بكتابه، والآخر يأكل كعكته، واثنان كان قد ضحكا وهي تتحدث ومضيا معًا، ندمت لأنها تحدثت بدلًا منه، كانوا سيعطون كلامه أهمية أكبر، عاد بعد قليل بحماس قائلًا:

ـتعالي معي بسرعة.

مشت بجانبه بسكون وصمت في رواق القصر، أردفت بعد قليل بأنفاس متسارعة:

ـهل لك أن تتمهل، أنا أركض لأساوي خطواتك.

ـهاتِ يدك وسأعرف حينها سرعة خطواتك فأمشي مثلها.

توقف ومدّ كفه إليها، نظر إليها كانت مرتبكة تجمع خصلات شعرها المجعّدة من على وجهها، ثم شرعت تجدّلها، اقترب منها مردفًا:

ـدعيها مبعثرة، سأتمهل، هاتِ كفك.

قالت بعبوس:

ـلا، سألحق خطواتك، سأجمعها إنها توترني وتجعلني أبطئ.

ـحسنًا يا عنيدة سأتمهل ولو لم تعطني يدك، ولكن اهدئي ودعيها هكذا تبدين أجمل.

ترددت وهي تتابع التجديل، كتمت بسمتها وهي تبعد كفيها عن شعرها، رفعت عينيها إليه بجدية متسائلة:

ـأين نذهب؟

ـستعلمين عندما نصل.

ـأريد أن أتحدث إليك.

ـسنتحدث عندما نصل.

ـولكن...

ـلا يهمني ماهو التبرير أو السبب، يكفيني أنني ألتقيتك ثانية.

صمتت، وتابعا المشي، وصلا عند بابٍ ضخمٍ جدًا، ابتسم ناظرًا إليها:

ـمستعدة؟

خطت بضع خطوات مقتربة منه، غالبت خوفها وأجابته بإيماءة موافقة، ألتقط المفتاح الصغير الذهبي الذي يقبع وسط نقوشات الباب، تفاجأت لأنها لم تنتبه لوجوده وسط كل هذه النقوشات المشابهة، "طق..طق..طق.. واحدة اثنتان ثلاث أربع"، فُتح الباب، تقدمها بخطوتين ثم تبعته، أُغلق الباب، كانت الإضاءة خافتة، بدأت الأرضية تمشي وحدها، ارتجفت وركضت لجانبه همس قائلاً:

ـلا تقلقي، توقفي بهدوء فحسب، المكان مُعد آليا لإيصالنا.

ـأدفع نصف عمري لأعلم أين سأصل في النهاية.

ابتسم صامتًا، شعرت بأن الأرضية ترتفع أيضًا، ندمت على مجيئها معه، كانت خائفة من المكان ومنه، لا تدري أتلجأ إليه أم تبتعد عنه، تنهدت ثم جلست أرضًا.

ـماذا تفعلين؟

ـكما ترى لا أفعل شيئًا.

جلس لجانبها قائلًا:

ـلم أرَ أميرة قط تجلس على الأرض.

ـلستُ أميرة.

ـبلى، ستصبحين قريبًا كذلك.

ـلا.

ـأنا الأمير نوار، ربما لم تسمح لنا الفرصة السابقة بالتعارف.

ـلم أكن أعرف بأنك أمير، آسفة لما مضى، إن شئت قف لم أجبرك على الجلوس لجانبي.

ـأنتِ لا تعطين أحدًا فرصة للكلام، لا في الماضي ولا في الحاضر، ما اسمكِ؟

ـلا يهم، لم يناديني أحد منذ زمن طويل، أخالني نسيت اسمي.

ـلكنني أريد مناداتك، لا أعرف عنك سوى أنك الفتاة الجميلة صاحبة العصا.

ـبما أنك لا تعرف شيئًا، فلماذا تهتم؟ دعني وشأني، أنا سأترك العمل هنا على أي حال.
ـأنتِ تعملين هنا؟!
ـوهل شكلي يوحي بغير ذلك؟
ـهل تعرفين ما نوع الإضاءة هنا؟
ـشموع؟
ـصحيح، هنَّ كهذه الشموع، يحرقن أنفسهن لأجل هذا الشعاع، لأجل أن يراهن العالم، يسرفن في زينتهن ليلفتن النظر أكثر، هنَّ آنسات محترمات ولديهن كل شيء، ورغم ذلك الغنى الذي يملء حياتهن ولكن قلوبهن فارغة، عقولهن مجوّفة، لا شيء فيها!

ـلكنهن جميلات!

ـجمالهنّ سطحيّ، ما إن تقتربي حتى يزول الانبهار، أنت مختلفة، تضيئين بلا جهدٍ منكِ، النور في قلبك يتسلسل إلى حيث تتواجدين، لا أدري ما الظروف التي أوصلتك إلى هنا لكنني أراكِ غنية النفس، إضافة لكونك جميلة، هنَّ شموع مآلهن الانطفاء، لكنك شمس، تضيء بشموخٍ وتغيب ثم تعود، لكنها لا تنطفأ بأي حال أبدًا!

أعادت خصلاتها وراء أذنها، وتوردت وجنتاها بشدة، لا تجد صوتها من الخجل فضلًا على أن تجد كلماتٍ ترد بها، قالت بخفوت:
_آفاق، اسمي هو آفاق.

****

ألسنة اللهب تأكل كل شيء بدءاً من البستان والأشجار الخلفية وحتى سور المنزل الأمامي، النيران كالأمواج ترتفع وتهبط لتقضي على ما تبقى، رجال الإطفاء في الخارج لا يستطيعون الدخول، فقد بعضهم الأمل بنجاة أي فرد من تلك العائلة الصغيرة، لكن أحدهم أبى أن يستسلم لذلك الخاطر، وخاطر بنفسه للدخول إلى ذلك المنزل على أطراف إحدى القرى، ثم خرج بعد دقائق قليلة يحمل فتاةً صغيرة تبكي بانهيار فظيع.
أخذها جدها من المستشفى إلى منزلهم الكبير، مرت عدة أيام لم تأكل ولم تتكلم، ثم خضعت لعلاج نفسي وسلوكي عند بعض المختصين مع خالتها الصغرى، كانت تحبها كثيراً وتعتني بها، بدأت

تتحسن، ثم دخلت المدرسة متأخرة عمن هم في عُمرها عامين، عانت من رؤية الأطفال مع أهليهم وهي لا تملك لا أمًا ولا أبًا، لكن جدها وخالتها عوضّاها عنهما قليلًا، كانت تتعلم أي شيء بشغفٍ، تميزت بدراستها في الصغر، ثم في طريقة تفكيرها وأعمالها المنزلية الصغيرة، كانت كلما كبُرت تضيف شيئًا جديدًا لشخصيتها، ربما بقصد أو بلا قصدٍ منها، آلمها فراق خالتها حينما تزوجت، بدت وحيدة جدًا تلك الفترة، جدها مريضٌ ومنعزلٌ أغلب الوقت، كان هناك أربع أخوال لها في البيت وكلهم متزوجين، وعندهم أطفال صغار، عدا واحدٍ منهم فقط، لم يكن هناك من يهتم لها أو لوجودها، ورثت غرفة خالتها، وملابسها، وكتبها، كانت تملك خزانة مليئة بالكتب، في ذلك الوقت حينما حاصرت الوحدة آفاق، فتحت لها الكتب آفاقاً وعوالم جديدة، وجدت بالقراءة خير أنيس، كانت في الخامسة عشرة من عمرها ذلك الصيف، حين عاد الخريف كانت في حاجة إلى أغراض مدرسية وملابس، هذه السنة مهمة وتتطلب جهدًا، طلبت ذلك من خالها الأصغر اعتبارًا لأنه ليست لديه عائلة ومسؤوليات، تململ قليلاً، ثم أقنعها بأنه سيجلب لها كتبًا ولكن ستدرس في المنزل إلى حين الاختبارات، وهي ممنوعة من الخروج من الآن فصاعدًا لأنها أصبحت شابة، لم

تفهم ما الغاية من ذلك، لكنها استسلمت في النهاية لا تريد أن تصطدم مع أحد بأي مشكلة.

في إحدى صباحات الربيع، استيقظت آفاق فرحةً بالجو المشمس، وبما أنها ممنوعة من الخروج إلا معهم فهي تتسلل إلى السطح كل فترة آخذة معها كتبها الدراسية وأحد الكتب من خزانة خالتها، ثم تعد شطيرة ما وتصعد بهدوء لا تريد اصطحاب أطفال يسببون الازعاج ويشوشون تركيزها، وبالطبع لا تنسى اصطحاب المذياع الصغير الذي أهدته لها خالتها قبل سفرها، كانت يحتوي قصائد شعر جميلة وهادئة، تؤنسها كلما احتاجت من تستأنس به، بدأت تفرغ محتوى حقيبتها وهي تستمع للقصائد، تدندن معها وترتب الطاولة جيدًا، كانت ترتدي فستانًا أصفر طويل، مزهّر بالوردي والأحمر، وشعرها المبعثر الأجعد يصل أسفل كتفيها بقليل، سمعت خطوات آتية نحوها أجفلت وراحت تبحث بعينيها، رأت فتى قد قفز من السطح المجاور ومتجه نحوها، حاولت استجماع شجاعتها وأبقت على المذياع على نفس درجة الصوت وكأنها لا تأبه لوجوده أصلًا، ألقى التحية فلم ترد، أعادها ثانياً فتكررت ردة الفعل ذاتها، سألها:

_ألا تسمعين يا فتاة؟

****

سمعت صوت ارتطام، وتوقفت الأرضية عن التحرك، نهضت بسرعة، مسحت المكان بنظراتها لكنها لم تعثر على الباب، نهض لجانبها مبتسمًا، سألته بقلق:

ـوصلنا؟

ـنعم.

مشت يمينه حتى توقفا أمام جدارٍ ما، جثا على ركبتيه وانحنى يضغط أرقامًا عدة، ثم فُتحت خزانة بداخل الجدار، ألتقط مفتاحًا صغيرًا، وعلبة خشبية، التفت إليها وهو يسحب عبوة مياه:

ـعطشى؟

اومأت برأسها، أعاد عبوة المياه، وسألها:

ـأجلب لك الماء؟

رفعت حاجبيها للأعلى ونظرة إليه نظرة استنكار، ضحك قائلًا:

ـلا تتحدثي بالإشارة، أسمعيني صوتك يا فتاة.

صمتت عمدًا، وتجاهلت النظر إليه، أكمل:

ـحسنًا أنا سأشرب وأعيدها، إن أردتِ الشرب أخبريني.

كتمت بسمتها وغيظها ومشت بضع خطوات في المكان وهي تنفض أطراف قميصها الأبيض، وأنزلت الأكمام وعقدت أزرارها للأسفل، سوّت تنورتها الفضفاضة الزرقاء، وأخرجت شريطة بذات اللون من جيبها، رفعت بها شعرها للأعلى.

ـآفاق.

استدارت إليه، ناولها الماء.

ـتفضلي.

ـشُكرًا.

ـحبًا وإكرامًا.

ابتسمت شربت، وراحت تعيدها بنفسها إلى الخزانة، أطاحها من يدها بحركة عنيفة، وقعت مصدرة ضجة وهي تتدحرج، استغربت لثقلها الذي لم يكن يبدو عليها بأنها ثقيلة، انحنى يلتقطها مردفًا:

ـآسف، لكنها خطيرة، مبرمجة على الاستجابة للعائلة فحسب.

أعادها مكانها ثم اقترب من آفاق:

ـهل آلمتك؟

هزت رأسها نفيًا.

ـيا فتاة هذا يستفزني تكلمي.

ضحكت مجيبة:

ـلم تؤلمني.

ـهيا بنا، قولي هيا واتبعيني لا تمشي صامتة.
ـحاضر
صمتت ثم تابعت:
ـهيا بنا إلى حيث لا أدري أين ستأخذني.
ـأحسنتِ، هكذا أريدك ثرثارة
ـالآن تريديني ثرثارة، وغدًا ستبذل جهدك لتسكتني!
وقف أمام جدار آخر، وتحسسه بيده، ثم وضع المفتاح فأضاءت نقوشات هندسية على أطراف الباب شيئًا فشيئًا من أعلى إلى أسفل، ثم فُتح الباب، أفسح لها المجال لتدخل قبله ثم تبعها، أُغلق الباب وحده آليًا، أعتمت الدنيا بالكامل.
ـنوار.
نادته.
ـلا تخافي.
ثم جلس أرضًا وفتح الصندوق الخشبي، أخرج الشمعة والكبريت، أشعلها فاقتربت آفاق نحوه، نظر إليها قائلًا:
ـاجلسي.
جلست بجانبه، تابع:
ـماذا تريدين أن تخبريني؟ تفضلي هاقد وصلنا.
ـنوار أنا لم أخدعك، ولم أكذب عليك.

ـ كيف اختفيت إذن؟
ـأتذكر آخر لقاء بيننا، أخبرتك أن تأتي بعد أسبوع عسى أنتهي وقتها من امتحاناتي ونلتقي، لكنهم لم يسمحوا لي بتقديم الامتحانات بعد ما تعبي فيها، افتعلت مشكلة كبيرة جدًا مع جميع من في البيت، ثم اتفقت زوجات أخوالي بأنه علي أن أغادر البيت، فما كان على أزواجهم إلا أن يوافقوا ببساطة، جمعت أغراضي وأعطونني عنوان بيت أبي في الريف الذي احترق منذ زمن، قالوا بأن جدي قد أصلحه، والمفتاح عند مختار القرية سيعطيني إياه عندما يرى بطاقتي الشخصية، وبالفعل ذهبت لكن المعيشة الوحيدة صعبة يا نوار.
ـأين كان جدك؟
ـتوفي قبل مغادرتي بعامين رحمة الله عليه.
ـوكيف تدّبرت أميرتي أمورها؟
ـنوار!
ـهذا أمرٌ مؤكد يا آفاق لا مهرب منه.
ـفرضًا أنني قبلت، لا يزال الأمر مبكرًا على مناداتي هكذا ثم...
ـثم ماذا؟
ـأنت تخجلني!
ـالخجل زينة الفتيات، ستعتادين لا عليكِ.
لا يدري هل ضوء الشمعة ما يجعل خداها تتوقدان أم أنه الخجل!

تابع:
ـأكملي وماذا فعلتِ لتدّبر أمورك؟
ـعملت بتدريس الصغار عامين، ثم سمعت عن عمل ممتاز بالقصر الملكي وأن الأجرة جيدة، فضلًا عن ذلك، أتيت شوقًا للمدينة، للأشياء الجديدة، لتعلم ما هو جديد، القرى تدفن أحلام المرء وآماله كافة، تدفن طاقته لتسخرها للأرض فقط دون غيرها!
ـوهكذا وصلتِ إلى قصرنا؟
ـنعم، هذا يومي الأول.
ـسبحان الله، أرأيتِ بعض الأقدار المؤلمة تسوقك لقدر أفضل، جاء دوري للحديث.
ـتفضل، ولكن ألا يوجد أضواء هنا، هذه الشمعة صغيرة، ولا أدري ما سبب اختيارك لهذا المكان المخيف.
ـستعرفين كل شيء الآن، لا يوجد غيرها مع الأسف، لا شيء مخيف هنا، ثم إنني لجانبك.
نظر إليها نظرة مطمئنة ثم عاد لحديثه:
ـأتعلمين؟ هذا القصر عجيبًا جدًا، ينتقي أمراءه بنفسه، حينما كان والدي شابًا تم الاتفاق على زواجه لأميرة من بلد آخر، وعند مجيئها لهذه الغرفة لم يتم قبولها بقي يعاني ويبحث بين الفتيات حتى وجد

أمي أخيرًا وتمت الموافقة عليها، والآن جاء دوري، لقد سمعت قصة هذا القصر حين كنت طفلًا.

أتعلمين منذ ألتقيتك للمرة الأولى وأنا على ثقة بإنك المناسبة يا آفاق، كنت أفكر بك بجدية منذ ذلك اليوم، لكنك لم تسمحي لي بأن أحدثك عن أي شيء شخصي، كنت صارمة والعصا بجانبك على الدوام!

سألت مبتسمة بخجل:

_أكنت تخاف مني؟

_لا، ولكني كنت أخاف ابتعادك لو خالفت ما تريدينه، وحينما اختفيت لم أحاول إيجاد فتاة أخرى، حاولت مرة مع روز، فتاة من العائلة، لكنها رُفضت من قِبل القصر، فلم أعد أهتم بالأمر، وها أنت قد عدت إليّ بنفسك.

_ألا تشعر بأنك تفرض عليّ الأمر فرضًا يا نوار؟

_عليك أن تقرري قبل أن نجرب، ربما لديك أحلامًا أخرى، ربما نسيتِ أمري تمامًا منذ مدة، يحق لك التفكير والاختيار، لكنني لن أفرّط فيكِ بعد أن وجدتك يا آفاق.

_أظن بأنني غير مناسبة لك.

_ظنونك هذه أرميها جانبًا واستمعي لقلبك.

ـالتفكير صعب، عليك الانتظار.
ـلا تتعبي نفسك، الأمر بسيط قولي نعم أن أومأي برأسك موافقة فحسب.
ـنوّار.
نادته ثم نظرت إليه بثقة قائلة:
ـآفاق ليست طفلة لتجيب بهذه الطريقة، أنا مستعدة للتجربة.
ـموافقة أم ستجربين فحسب.
ـلن أخبرك حتى أتأكد من النتيجة، ماذا الآن؟
ـسنجرب، اسمعي لو رُفضتِ سنعود من حيث أتينا وثقي بأن هذا لن يحدث، أما لو قُبلتِ فسيُفتح أحد الأبواب لتعبري منه وتجدين الطريق إلى قاعة القصر، ليتم إعلانك أميرتنا رسميًا، وسأكون هناك بانتظارك.
ـمهلًا، سأذهب وأضيع وحدي؟!
ـأنت شجاعة يا آفاق، أثق بك.
أخرج من الصندوق شيئًا ما، واقترب نحوها قائلًا:
ـأغمضي عينيك.
حدقت به بلا استجابة، أردف:
ـآه، عنيدة أكثر مما أظن ألا تثقين بي؟

أومأت ثم أغمضت عينيها، فألبسها قلادة تحتوي كريستالة بيضاء، أردف مازحًا:

ـفتّح يا ورد الجوري، هيا انهضي.

ابتسمت لترديديه عبارة من لُعب الطفولة، وقفت تتحسس القلادة بأصابعها كانت جميلة جدًا.

رفعت عينيها إليه فقال:

ـإنها لوالدتي وهي الآن لكِ، ستضيء بلون أزرق حينما تسلكين الطريق الصحيح وبلون أحمر حينما تسلكين الطريق الخاطئ، دعيها تذكرك بأنني معك حتى عندما لا أكون كذلك.

ناولها الشمعة ومشيا معًا، توقفا عند آلة ضخمة، كانت الإضاءة خافتة اتضح منها مكان لموضع الكف، استدارت إليه تنظر لكفها، فأومأ إليها أي نعم، وضعت كفها وإذ بالآلة تهتز، واشتعلت شموع على أطراف الغرفة من الأعلى، بدأت تتطاير بعض الذرات الذهبية الصغيرة في الجو، تأتي من كل مكان و تتجمع فوق رأس آفاق، سحبت شريطة شعرها فانسدل براحته وفوضويته المعهودة فوق كتيفيها، تشكّلت الذرات بشكل تاجٍ ثم استقرت فوق رأسها فشعرت بثقله، استدارت إلى نوار الذي كان يتابعها بشغفٍ كبير، اقترب منها مردفًا بسعادة غامرة:

ـ كنت واثقٌ جدًا بنجاحك، كان إحساسي في مكانه، ما أجملكِ!

حنت رأسها استحياءً، همس قائلًا:
ـعلى أميرتي ألا تنخي كي لا يقع تاجها.
ـحسنًا، وماذا الآن؟
أشار لها نحو أحد الأبواب، وسبقها إلى هناك، ما إن وصلت حتى تطاير التاج وتناثرت ذراته مُشكّلة مفتاحًا ذهبيًا، ألتقطته بيدها، استدارت إلى نوار، نظرت إليه ثم إلى المفتاح، أردفت مبتسمة بعينين دامعتين:
ـنوار، اعلم بأن مفتاح قلبي الآن بيديك، كما أن مفتاح مستقبلي بيدي الآن، لن أضيّعه ولن أطيل حتى أصل إليك، فلا تضيّع هذا القلب التي استأمنتك عليه، ولا تطل غيابك عنه مهما حدث، اتفقنا؟
ثم عادت إلى الباب وأدارت المفتاح.

تمت بعون الله❤️